الشاعر ديك الجن في قفص الإتهام

د. لخضاري لخضر

أستاذ في كلية الحضارة

و العلوم الإنسانية - وهران

تعرض ديك الجن لهجوم شديد من قبل بعض الباحثين ،وكان هجومهم جنيا على قراءة متسرعة لبعض شعره ،و بنوا على ذلك حكما قاسيا مبرحا ، دانوا فيه الشاعر ،وحكموا عليه غيابيا بالمروق من قلة الإسلام ، و الرقة في الدين ، و الضعف في اليقين ،بل أوغل بعضهم في الجنوح و الشطط فنبه إلى الإلحاد ،من غير ترد ،أو دفة نظر ،ى أو قبس من التفكير

و لا بأس بعض أقوال أولئك الباحثين ، ليتم الوقوف على أبعاد تلك اللهجة ،ومن ثم أرد عليها بقواعد البحث العلمي ،و أصول التفكير المنطقي ،مع ذكر الأدلة الدينية المستوحاة من النصوص الفقهية .

قال أبو هلال العسكري : " كلام الملحدين لعنهم الله : منتهم ديك الجن عبد السلام بن رغبان الحمصي .... قبحهم الله، لقد أعظموا القول ،و لم ينتفعوا إظلا بالفضيحة في الدنيا ، و الإثم في الآخرة "1

و قال البدوي الحلثم :" و مما اشتهر عن ديك الجن شدة التشعب ،و العصبية على العرب للنيل منهم ،لا مذهبا يرجع إلى عقيدة و إيمان ،إذ كيف تتفق سلامة إيمانه مع قوله :

أأترك لذة الصهباء نقدا	لما وعدوه من لبن و خمر
حياة ثم موت ثم بعث	حديث خرافة يا أم عمرو2

واستنادا إلى هذه النصوص يبدو ديك الجن كافرا للوهلة الأولى ،فهل يصح إطلاق ذلك الحكم عليه ؟

ويكمن الجواب في القواعد الشرعية المتفق عليها ،وهي :

- أن اليقين لا يزول بالشك
- و أن الأصل أن يحمل حال مسلم على الصلاح ما أمكن
- و أن الأصل براءة الذمة 3

و قد اتفقت الشرائع و القوانين على أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته ، ولا يجوز التفسيق إلا بقاطع سمعي ، و أن من دخل في حياض الإيمان بيقين ، لا يخرجه منها شك و لا ظن ، لأن اليقين لا يزول إلا بيقين مثله .

و لقد تضافرت النصوص على وجوب الاعتماد على البرهان القاطع ،الذي لا تعتريه الشبهات تفي مسألة تفيق المكلفين ؟، والحكم عليهم بأحكام لا نعلم سبب إقدامهم عليها ،فقد يكون الواحد فكرها، أو متأولا ،أو قال أقوالا ولم يترجمها في الواقع ،و في ذلك إعمال للقواعد السالفة التي اتفق عليها العلماء و العقلاء .

ولأن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة ، قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم : 4"

ومن المعلوم أن تفسيق المؤمن بكل أمارة وشبهة إزهاق لروحه البريئة ، وقد جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم :" لمن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله "5

وحسب القواعد والضوابط السابقة: إنه من باب حسن الظن، وحمل أفعال المعينين على الصلاح، يجب أن نلتمس الأعذار لديك الجن ،فهو لم يشهر بمعاصيه إلا لغاية كان يرجو الوصول إليها، لأن الذي يعصي من أجل المعصية يسترها لئلا يطلع عليها العوام ، حتى إنه يلجأ إلى البارئ متضرعا آناء الليل وأطراف النهار ليستر زلته خشية الناس .

وأما من أعلن عن معاصيه، فهو يريد مقاصد يرجو أن تصل معانيها للأجيال القادمة ، فهو كمن احترق احتجاجا لوضع يريد أن تتغير ظروفه / وتتحسن أصوله، وإن أدعى قولا أنه المدمن على الخمور واستماع القينات ، فهو قول بلا يحاسب عليه حتى يترجمه إلى أفعال يستحملها ،فشتان بين قول و فعتل . و بجانب هذا الحديث أذكر قول ديك الجن :

أستغفر الله لذنبي كله 6

ثم بعد هذا الاستغفار يأتي من يقول : إن ديك الجن كافر، أو ملحد ! ؟ إن هذا لا يكون صحيحا أبدا .

و سأورد الأشعار التي اتهم الشاعر من خلالها، ثم أعلق بما يدفع التهم الملفقة ، ويعيد الحق إلى نصابه .

أولا : اتهام ديك الجن أنه لا يفرق بين المليح أ والقبيح ،و من جنس الذكور أو الإناث ، فكل من يدرج على وجه الأرض قابل للنكاح يقول :

حد من ينكح عندي	حيوان فيه روح
أن رمن قولي مليح	أو قبيح مستريح
كل من يمشي على وج	ه الثري عندي مليح

و أقول : هذا الكلام مجمل في اصطلاح الأصوليين ،و المجمل لا قطع فيه ، و حمله على وجه دون غيره من الأوجه تضييق لواسع ،و ترجيح دون مرجح ،فالقول : إن كل شيء مباح عنده ، و يقبل النكاح ،هو حمل للألفاظ على بعض ما تحتمله من وجوه،وهذا الترجيح يحتاج إلى دليل قطعي لا شبهة فيه ولا والتمسك بقاعدة "الأصل في الكلام الحقيقة7"

ليس هذا محله لأن المرء لا يحاسب بظاهر ألفاظه، وإنما العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمعاني، خاصة أن هذه الدراسة تنتمي إلى عالم الأدب حيث المجاز والبيان والبديع ، قال الباجي " "والمجاز من أكثر شيء من كلامهم ، أي :العرب وأبين المحاسن في خطابهم ،وبه يحلون خطاباتهم ،ويعودونه من البديع بينهم "8

ثانيا : اتهام ديك الجن بعدم التوبة ،و الإصرار على الغي و اللهو ، فدينه رقيق ، لتجاوزه ما نهى عنه الدين ، و حر فيه الشريعة ، يقول:

يقولون ثب و الكأس في كف أغير	و صوت المثاني والمثالث عال
فقلت لهم لو كنت أضمرت توبة	وعاينت هذا في المنام بدا لي

وأقول: ظاهر كلام الشاعر أنه رفض أن يتوب، ويقلع عما يقترفه من معاصي، وهذا الظاهر ذهب إليه بعض الباحثين في هذا العصر ،ولكنني أقول فيما ظهر لي :إن الشاعر في صراع بين ذاته و تلك المغريات التي تحاصره أينما توجه، فالخمرة عن يمينه،والقينات عن يساره،والمعازف آخذة بتلابيبه،وهو في مجتمع لا عهد له بنظام،واستعداد لديه لوئام، فالكل يشجع الرذيلة، فمن يملك ناصية الحق ويتمالك أهواءه أما هذا اليتم الهائل ؟! .

و قد قيل: إن من شروط الدفاع الشرعي، أن تتناسب وسيلة الدفاع مع مسيلة العدوان، أي تتناسب بين تعدي المجتمع و دفاع فرد لا يملك حولا و لا قوة ؟! .

ثالثا: اتهام ديك الجن بتركه الصلاة وشربه الخمرة ،وقتله زوجته وهو صاح واع بقول

أستغفر الله لذنبي كله	قتلت إنسانا بغير حله
وانصرم الليل و لم أصله	و السكر مفتاح لهذا كله

وأقول: الأصل أن تحمل هذه بالأبيات على ما سيقت إليه أصالة من معان ، و لا أكون مبالغا إذا قلت : إن الشطر الأول من البيت دليل وشاهد ومثر بما ذكرناه من أصول سنة ، حيث قال " استغفر الله " فماذا سيفعل من كفره بهذه الكلمة التوحيدية يوم القيامة ، بل كيف أعرض خصوم ديك الجن من الباحثين والدارسين عن هذا المعنى الأصيل إلى غيره من الألفاظ التي

لا تصادم الحقيقة الإيمانية ، لاختلافها في القوة، الاستغفار دليل قطعي على ثبوت الإيمان، والسكر وترك الصلاة لوازم لا تقوى على دفع القواطع السالفة ، أنها أفعال ومعاصي، وجزمت فيها بعدم التفكير بالآثام ، إتباعا للآثار الصحيحة والنصوص الفقهية الداعمة، وهذا رد مجمل.

خامسا : اتهام ديك الجن أن يقابل بين تلاوات الإيمان وطيب مذاق فم الحبيب قبل أن يقبله، وفي هذا اضطراب في الإيمان وسخرية تعبر عما يعصف بنفس الشاعر من ألم نابع من عدم يقينه الكامل بوجود الخالق، يقول .

بأبي فن شهد الضمير له　　قبل المذاق بأنه عذب
كشهادتي لله خالصة　　قبل العيان بأنه رب9

والحقيقة أن الشاعر لا يقارن بين طيب مذاق الفم وحلاوة الإيمان، إنما يذكر أنه عفيف النفس ، طيب الروح، فلم يقبل محبوبه يوما ليتجسس مذاقه، ومع هذا حكم عليه حكما غيابيا جاذبا يقينا أنه عذب، هذا الاعتقاد يساوي اعتقاد الربوبية في الحكم ، وتلك صورة بلاغية معهودة في كلام العرب.

الإحالات

1 --ديون المعاني (01/1)
2- ديك الجن الحمصي (18)
3- القواعد الفقهية ، للندوي (210)
4- سورة الحجرات ، الاية 12
5- رواه البخاري (6652) من كتاب الأيمان والنذور ، باب من حلف بملة سوى ملة الإسلام
6- الديوان (167) و ديوان المعاني 316/1
7- القواعد الفقهية ، للنووي
8- هو سليمان بن خلف الفرطبي : فقيه مالكي كبير، ومن رجال الحديث ،من كتبهن : السراج في علم الحجاج" و" المنقى" ،توفي سنة 485 هـ الدبياج المذهب ونفح الطيب .
9- الديوان (202) و ديوان المعاني (241/1)